مبحث تمهيدى

حياة القتال الكلابى وشخصيته وشعره

مقدمة :

القتال الكلابى أحد الشعراء الذين اشتهروا بالجريمة والفتك، حتى غلب هذا اللقب (القتال) على اسمه الحقيقى فأصبح معروفاً بلقبه أكثر من اسمه كما أن ولعه بالإجرام والقتل انعكس على أخباره فبدت أخباره أقرب إلى الغربة منها إلى الواقع .

ولما كان اهتمام هذا البحث منصباً على الدرس اللغوى لأشعار القتال ، لا للترجمة لشخصه ، فإن الفصل الحالى يسعى إلى إيراد ترجمته من واقع المصادر المتاحة دون اهتمام بتحقيق ما يتصل بحياته أو مواقفه إلا إذا كان لذلك صلة بشعره والمصادر المتاحة لحياة القتال هى :

١. الأغانى للأصفهانى المجلد الرابع والعشرون.
٢. المؤتلف والمختلف للآمدى .
٣. أسماء المغتالين لابن حبيب.
٤. مقدمة د. إحسان عباس لديوانه.

اسمه ولقبه ونسبه :

اختلفت المصادر فى اسم القتال فتعدد اسمه بتعدد المصادر التى ذكرت أخباره فهو عبد الله أو عبيد أو عُبَادة أو عَبَّاد ذكر صاحب النوادر أن اسمه عباد بن مجيب المضرحى بن حبيب وذكر أبو الفرج الأصفهانى من الأغانى أن اسمه عبد الله بن المضرحى بن عامر الهصان بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

واختلف كذلك فى اسم أبيه فهو أحياناً مجيب وأحياناً محبب أما جده فهو المضرحى وقد افتخر به فى شعره فقال :

أنا ابن المضرحى أبى شليل وهل يخفى على الناس النهار ؟

وقد تزوج المضرجى – جد القتال – امرأة من بنى عجلان اسمها خولة وولدت له ابنه "مجيباً" أبا القتال ، وقد كان القتال كثير التفاخر ببنى العجلان تعصباً لجدته.

وأما والدة القتال فهى من بنى كلاب واسمها عمرة بنت حرقة ابن عوف ابن شداد ابن ربيعة ابن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب ، وقد افتخر بها القتال فقال:

لقد ولدتنى حُرة رَبَعِيَّةٌ من اللاء لم يُحْضِرْنَ فى القيظِ دنِدنِا

ويقول فى قصيدة أخرى :

صلى على عمرةَ الرحمنُ وابنتِها ليلى وصلى على جاراتها الأُخَرِ

أما أبناء القتال فهم سبعة خمسة من البنين واثنتان من الإناث أما البنين فهم المسيب الذى كان يكنى به لأنه أكبر أبنائه ثم حبيب وعبد الرحمن وعبد الحى وعمير والبنتان هما جنوب وقطاة وقد كانت إحداهما شاعرة أورد لها صاحب اللسان بيتاً من قصيدةٍ فى رثاء أخيها .

ولم يذكر القتال فى شعره من أسماء أبنائه غير عبد السلام الذى يخاطبه فى إحدى قصائده بقوله :

عبد السلام تأمل هل ترى ظُعُناً إنى كبرت وأنت اليوم ذو بصر

وكلمة القتال صفة عُرف بها ، ومن ثم أصبحت لقباً غلب على اسمه الحقيقى لتمرده وفتكه ، لأن جرائم القتل التى اقترفها القتال من الكثرة بمكان حتى أنه استمرأ القتل بعد ذلك وأصبح يُستأجر له .

وكانت أول جريمة قتل اقترفها القتال هى قتله ابن عمه زياد وتوالت بعد ذلك جرائمه ، أما عن سبب قتله ابن عمه فقد كان للقتال ابنة عم يقال لها : العالية بنت عبيد الله وكان يتردد عليها فنهاه أخوها زياد عن ذلك فلم ينته ، وطارده ابن عمه زياد محاولاً قتله ولكن القتال استطاع أن يصنع يابن عمه ما أراد هذا الأخير أن يفعله به وفى هذا يقول :

نَشَدْتُ زياداً والمُقامةُ بيننا ... وذَكَّرْتُه أرحامَ سِعْرٍ وهَيْثَمِ
فلما رأيتُ أنه غير منته ... أملت له كَفِّى بلدنٍ مُقَوَّمِ
ولما رأيت أننى قد قتلته ... نَدِمْتُ عليه أىَّ ساعةِ مَنْدَمِ

ويقول أيضاً :

نَهَيْتُ زياداً والمَهَامِةُ بيننا ... وذكرته بالله حولاً مُجَرَّمَا
فلما رأيت أنه غيرُ منته ... ومولاى لا يزداد إلا تقدُّما
أملت له كفى بأبيضَ صارم ... حسامٍ إذا ما صادف العظَم صمما
بكف امرىء لم تَخْدِمِ الحىَّ أُمُّه ... أخى نَجَدَاتٍ لم يكن مُتَهَضَّمَا

وبعد قتل زياد خرج القتال هارباً وأهل القتيل يطلبونه فمر بابنة عم له تدعى زينب وطلب إليها أن تلقى عليه ثيابها وأن تلبسه برقعها وكان بجوارها حناء فأخذ فلطخ بها يديه ومر به طالبوه فظنوه زينباً فقالوا :أين الخبيث؟ فقال لهم: أخذها هاهنا فلما اتجهوا الوجهة التى أشار عليهم بها سارع إلى الفرار من وجهة أخرى حتى وصل إلى جبل يقال له عماية فاستتر فى شعابه وفى ذلك يقول :

أ لا هل أتى فتيان قومَى أننى ... تسميت لما اشتدت الحرب زينبا
وأدنيت جلبابى على نبت لحيتى ... وأبديت للقوم البنان المخضبا

ويقول أيضاً فى ثنائه على جبل عماية :

جـــزى الله عنـــا والجـــزاءُ بكفـــه عَمَايَـــة خيـــراً أُمَّ كـــل طريـــد
فـــلا يزدهيهـــا القـــوم إن نزلـــوا بهـــا وإن أرســـل الســـلطانُ كُـــلَّ بريـــد
حمتنـــى منهـــا كُـــلُّ عنقـــاءَ عَيْطَـــل وكُـــلُّ صَـــفَا جَـــمٍّ القِـــلات كَنُـــود

وكما ذكرنا فإن القتال لقب غلب عليه لولعه بالفتك والإجرام وهذا اللقب لم يكن قاصراً عليه بل أطلق على عدد من المتمردين القتال وقد عد الآمدى منهم ثلاثة قتالين آخرين وهم القتال الباهلى والقتال البجلى والقتال السكونى (١) وزاد ابن حبيب رابعاً اسمه عبد الرحمن بن صبحان المحاربى (٢).

متى عاش :

زعم أبو زيد بن عمر بن شبه جامع أخباره أنه جاهلى إلا أن ابن حبيب عدّه من فتّاك الإسلام ولكن البكرى جمع بين الرأيين فيما نقله عن أبى عبيدة فقال إنه مخضرم واستدل على ذلك بأن مروان بن الحكم أمر بجلده عندما كان والياً على المدينة وقد ولى مروان المدينة مرات عديدة فى خلافة معاوية ،وكان أميراً للحج عام ٤٣ ،٤٨..٥٤ ،٥٥هـ وذهبت إحدى الروايات إلى أن الذى أمر بحبسه هو وال من ولاة المدينة لمروان حين كان خليفة (٦٤-٦٦) ولا نعتقد أن هناك فرقاً زمنياً بين الروايتين ، ولكن جمع الروايتين يدل على آن القتال اشتهر بتمرده أيام معاوية واستمر حتى خلافة مروان بل ربما امتد به العمر سنوات أخرى فى عهد عبد الملك .حيث يشير فى شعره إلى يوم بنات القين وهو يوم من الأيام القبلية التى جرت فى عهد عبد الملك ثم يشير إلى أيام أخرى آخرها ما حدث فى أيام فتنة ابن الزبير (٦٣-٧٢).

١- المؤتلف ١٦٧.
٢- أسماء المغتالين ٢٠٣

obeikandl.com

وهناك خبر واحد قد يصله بالجاهلية – إن صح – وهو أنه أراد أن يتزوج من بنت المحلق بن حنتم (خثيم).

ونحن نؤيد د. إحسان عباس فى ميله إلى الأخذ برأى صاحب الخزانة الذى قطع بأن القتال شاعر إسلامى كان فى الدولة المروانية فى عصر الراعى والفرزدق وجرير (١) لأن هذا الرأى يؤيده شعره والأحداث التى اتصل بها اسمه ، وليس فى ما وصلنا من شعره مدائح فى رجال عصره يستفاد منها تحديد الزمن الذى شهده نشاطه الأدبى ، لأن الرجل كان بدوياً متأبداً لا يحفل بالوفود على الأمراء والحكام وليس لدينا من شعره فى المدح إلا قصيدة واحدة يمدح بها عبد الله بن حنظلة الكلابى ، وهو شيخ من شيوخ البادية ومن أقرباء القتال ، وصلة هذا الممدوح نفسه بالحياة السياسية العامة فى عصره غير واضحة ولذلك فإن هذه العلاقة بين الشاعر والممدوح لا تفيدنا كثيراً فى تقدير الناحية الزمنية التى عاش فيها القتال (٢).

صفاته وأخلاقه :

لم تذكر لنا المصادر من صفاته الجسمية إلا أنه كان أحمر اللون وقد صرح بذلك فى قوله:

ورثنا أبانا حُمُرَةَ اللون عامراً ولا لون أدنى للهجان من الحمر

ويتضح من أخباره وطبيعة الحياة التى عاشها أنه كان خفيفاً عصبياً قليل اللحم سريع العدو فهو يعتمد فى هروبه من جرائمه على الهرب السريع كذلك كان يتصف بشىء من الذكاء وهذا واضح من تنكره فى ثياب زينب ابنة عمه وتلطيخه ليديه بالحناء

١- الخزانة ٣: ٦٨٨.
٢- ديوان القتال ص١٥.

ونستطيع كذلك أن نستنبط من شعره أنه كان طويل القامة ، فالطول فى رأية صفة مثالية- والناس الذين يعجبونه "طوال أنضية الأعناق " وممدوحه طويل فارع .

كأن سلاحه فى جذع نخل ... ثَقَاصَرُ دُونَه أيدى الرجال

وهو يمدح نفسه بأنه " منخرق السربال عبل المناكب – وإذا هجا أحداً هجاه بالقصر بين قصير باعهُ تِنبال " و"مؤدن وفى شبراً بمشبار"

وتصفه المصادر بالشجاعة والفروسية ثم تعود لتصفه بالدناءة فقد شبهه الأصمعى فى دناءة نفسه بالحطيئة حين أنشد القتال قصيدة رائية مشهورة قال فيها :

يا ليتنى والمنى ليست بنافعة ... لمالك أو لحصن أو لسيار

طوال أنضية الأعناق لم يجدوا ... ريح الإماء إذا راحت بأزفار

لا أرضعَ الدهر إلا ثدى واضحة ... لواضح الخد يحمى حوزة الجار

وضمنها بيتيه المشهورين :

إن العروق إذا استترعتَها نزَعَتْ ... والعرقُ يَسرى إذا ما عرَّس السارى

قد جَرَّب الناس عودى يقرعون به ... فَأَقْصَرُوا عن صَليبٍ غيرٍ خوّار

وقد وصفته المصادر بأنه كان فى دناءة نفسه مثل الحطيئة لأنه مرة تَدَنَّى إلى أن يطلب زماماً من إحدى النساء فلما تعطه إياه هجاها. ولكن د. إحسان عباس يشك فيما تذكره المصادر عن دناءة نفسه "لأن صورة أشباه القتال تقترب مما كان عليه الصعاليك فى الجاهلية" ومثله يجد فى قدرته على الغصب ما يعوضه عن سؤال الناس"(١) .

أحب القتال العالية بنت عبيد الله من بنى عمومته، وبسبب ولعه بالحديث إليها ارتكب أولى جرائمه التى مهدت له طريق الإجرام فيما بعد .ولكن العالية تزوجت رجلاً من

١- ديوان القتال ص١٦

أشراف الحى فاستهتر؟؟؟القتال بها وظل يذكرها فى شعره ، وكان يتمنى لو أنها خيرت بينهما"تخيرى خيرت فى الرجال" وكان ذكره لها يغيظ بعض قومه حتى شرطوا مرة لإطلاقه من السجن أن يكف عن ذكرها فوعدهم بذلك ولكنه لم يف بوعده ويدل غزله فيها على أنه كان يحبها حباً قوياً يشبه أن يكون عذرياً

وقد أصبح القتال مزواجاً بعد أن أخفق فى حبه وربما كان إخفاقه فى حبه هو السبب فى ذلك وربما كان إكثاره من الزواج يعود إلى إيمانه بمعنى السند القبلى فقد رزق بعدة أبناء يقفون إلى جانبه وينتصرون له فتزوج من بنت ورقاء بن الهيثم بن الهفان ومن أم رياح صفية بنت مسير بن نفر بن الهضان وطلق الأولى وهى حامل لأنه وجد عندها فى إحدى أوباته جرير بن الحصين وقبل ضدها شهادة ضرتها أم رياح وتزوج ثالثة تدعى ريا بنت معين بن عامر بن كعب وكان يرغب فى الزواج من بنت المحلق ولكنها آثرت عليه (أو آثر أهلها) عبد الرحمن بن ضاغرالبكائى .

كان القتال الكلابى كثير الجرائم سريعاً إلى السيف ولذلك تخلت قبيلته عن حمايته مما جعله ثائراً عليها فى أغلب الأحيان وهجاؤه لقومه وثورته عليهم موقف شاذ مناقض لعصبيته لأنه موغل فى فهم العصبية ولا يكاد يؤمن بشىء سواها حتى أنه يتعصب لبعض القبيلة على بعضها الآخر، وهو مسرف فى الإيمان بنقاء الدم ، شديد المقت للإماء وأولادهن كثير التمدح بسلامته من هذا الوباء وهو يصف نفسه بأنه ذو نفس شريسة يحتقر قبول العقل أو الدية فى العلاقات العدائية ولابد له من الثأر طال الزمن أو قصر بهو يسكت عن التراث حتى تمكنه الفرصة ، أهانه مرة جرير بن الحصين بضربة سوط على أنفه فحاولوا ترضيته فلم يقبل وبقى ينتظر ثأره حتى احتلم أبناؤه فطلب بهم ثأره (١)

١- الأغانى ٢٠ :١٦٤

وهو مرير العداء حاد ماض صلب فى الحق والباطل على السواء عنيد إذا صمم على شيء نفذه وقد بلغت شهوة القتل عنده أن قتل أمة لعمه ليمنعه من تزوجها حتى لا يكون فى القبيلة أبناء إماء وإن الأمر الذى يدعو إلى الاستنكار أن عمه ادعى أنه قتلها وهى حامل ، فما كان منه إلا أن صحبهم إلى قبر الأمة القتيل وأخرج جثتها وشق بطنها ليثبت لهم أنها لم تكن حاملاً وهذا عمل بشع لا ترتضيه الطبيعة الإنسانية ولا يقدر عليه إلا محترف فى القتل والإجرام ، فهو قاتل فى كل حال ، يقتل دفاعاً عن نفسه ، ويقتل مبتدئاً متعمداً ابتغاء الكسب ، ويقتل محترفاً إذا وجد من يحرضه على القتال غير أن بعض المشاعر الإنسانية كانت تتسرب إلى نفسه أحياناً فى صورة ندم فقد **قال بعد أن قتل ابن عمه زياد :**

ولما رأيت أننى قد قتلته ... ندمت عليه أى ساعة مندم

ولكن هذا الندم عابر لا يلبث أن يزول ليعود إلى ارتكاب مزيد من الجرائم ولقدكبر القتال الكلابى وتقدمت به السن ، وهو مع ذلك لم يعلن توبة ،ولم يقلع عن التفكير فى السطو والنهب ، ونحن نراه حين بلغ من العمر نهايته يحن إلى الظعائن فى مخاطبته لولده **عبد السلام قائلاً :**

عبد السلام تأمل هل ترى ظُعُناً ... إنى كبرتُ وأنتَ اليوم ذو بصر
لا يُبْعِدُ الله فُتياناً أقول لهم ... بالأبرقِ الفردِ لما فاتهم نظرى
يا هل تَرَاءَى بأعلى عَاسِمٍ ظُعُنٌ ... نَكَّبْنَ فحلين واستقبلن ذا بقر

القتال يهجو قومه :

كان القتال رغم مغالاته فى العصبية لقومه شديد الهجاء لهم لأنهم تخلوا عنه ورفضوا حمايته بسبب ما كان يرتكبه من جرائم ، والقتال من الشعراء القليلين الذين

يهجون قومهم لأن الشاعر يكون عادة المحامى عن قومه الزائد عنهم سهام أعدائهم من الشعراء ، المظهر محامد قبيلته ومفاخرهم ولعل السبب فى هجاء بعض الشعراء لقومهم هو سلوكهم حيالهم والتراخى عن حمايتهم ، وللقتال قصيدة طويلة يهجو فيها قومه لأنهم لم ينتصروا له حين أقيم عليه الحد لقذفه زوج ابنته .

فبعد أن زوج القتال ابنته أم قيس – واسمها قطاة- رذاذ بن الأخرم بن مالك بن مطرف بن كعب بن عوف بن عبد بن أبى بكر مكثت عنده زماناً وولدت له أولاداً، أغارها زوجها فشكت إلى أبيها فاستعدى عليه ورماه بخادمها وجاء رذاذ بالبينة على قذفه إياه بالأمة فأقيم ليضرب فلم تنتصر له عشيرته . وقامت عشيرة رذاذ فاستوهبوا حده من صاحبهم فوهبه لهم وكانت عشيرة القتال تبغضه لكثرة جناياته، وما يلحقها من أذاه فقال يهجو قومه (١)

إذامـــا لَقِيـــتُم راكبـــاً متعممـــا ... فقولـوا لـه: مـا الراكـبُ المُـتَعَمَّمُ

فـإن يـكُ مـن كعـبِ بـنِ عبـدٍ فإنـه ... لئـيمُ المحيـا حالـكُ اللـون أدهـمُ

دعـوتُ أبـا كعـب ربيعـةَ دعـوةً ... وفـوقى غَوَاشـى المـوت تُنْحَـى وتَـنْجمُ

ولـم أك أدرى أنـه ثُكْـلُ أمـه ... إذا قيـل للآحـرار فـى الكربـةِ أَقْـدِموا

فلـو كنـتَ مـن قـوم كـرامٍ أعـزةٍ ... لحاميـتَ عَنِّـى حـين أحمـى وأضـرَمُ

دعـوتُ فكم أسمعتُ من كل مُؤْدَنٍ ... قبـيحِ المحيـا شَـانَهُ الوَجْـهُ والفَـمُ

سـوى أن آلَ الحـارث الخـيرَ دَبَّبُـوا ... بـــأَعيطَ لا وَغْـــلٌ ولا مُتَهَضَّـــمُ

ألا إنهـم قـومى وقـومُ ابـن مالـك ... بنـو أُمّ ذئـب وابـن كبشـةَ خَيْـثَمُ

ولَكِنَّمـا قَـوْمِى قُمَاشَـةُ حَاطِـبٍ ... يُجَمِّعُهـا بـالكف ، والليـلُ مُظْلِـمُ

١- الديوان ، ص٨٥

ولم يكن هجاء القتال لقومه فحسب وإنما كان هجاء مفحشا يسل لسانه لأدنى سبب ولذلك نبذه قومه وحاربوه حتى أنه تمنى لو أنه لم يكن منتسباً إليهم (١)

يا ليتنى والمنى ليست بنافعةٍ لمالك أو لحصن أو لسيار
من معشر بقيت فيهم مَكَارِمُهُم إن المكارم فى إرث وآثار
طِوَالُ أنضبة الأعناق لم يجدوا ؟ ريح الإماء إذا راحت بأزفار
لا يتركون أخاهم فى مُوَدَّأَةٍ يسعى عليه دليك الذل والعار
ولا يفرون والمخزاةُ تَقْرَعُهُمْ حتى يصيبوا بأيد ذات أظفار

وأحياناً نراه يصيح فى وجه قبيلته صياح اليائس الذى يرى انتسابه إليها حتمية جائزة

هل من معاشر غيركم أدعوهم فقلد سِئَمْتُ دعاء يَا لَكِلابِ

طرف من أخباره :

كان حب القتال لابنة عمه العالية هو الدافع الذى أوقعه فى أول جريمة قتل ارتكبها والتى مهدت له سبيل الإجرام فيما بعد ولكن قتله زياداً كان دفاعاً عن نفسه لا شهوة للقتل ومع ذلك فإن هذه الواقعة أورطته فيما نشب فيه بعد ذلك لأنها جعلته طريداً لأهل القتيل أولاً ثم للسلطان والقانون ثانياً، وبعد هذه الحادثة هانت عليه الجريمة وأصبح قتّالاً مشرداً مكروهاً .وملخص هذه القصة أن القتال كان يتحدث إلى العالية بنت عبيد الله ابنة عمه ويتردد عليها وكان للعالية أخ غائب يقال له زياد فلما قدم رأى القتال يتحدث إلى أخته فنهاه وحلف إن آراه ثانية ليقتلنه ولكن ولع القتال بالحديث إليها جعله لم يحسب حساباً لذلك الوعيد وجرّأه الحب على معادوة زيارتها فبصر به زياد عندها بعد ذلك

١- الديوان ، ص٥٥، ٥٦

بأيام وربما كان يرقبه – فاستل سيفه ليقتله ورآه القتال فخرج هاربا وزياد فى إثره وناشده القتال بالله والرحم " وذكرته أيام سعر وهيثم- فلم يلتفت إليه زياد بل زاد تصميما على قتله وكاد يلحقه وشاءت المصادفات أن يجد القتال فى طريقه رمحاً مركوزاً- أو سيفا فأخذه وقضى به فى البحث عنه هذه الحادثة والتى تمت تحت ظروف قهرية جعلت القتال يشعر بالندم على ما فعل :

ولما رأيت أننى قد قتلته ندمت عليه أى ساعة مندم

واشتد الطلب على القتال بعد مقتل زياد ،وكان مروان بن الحكم يومئذ والياً على المدينة ،فحفز الولاة القائمين من قبله على شئون نجد بالبحث عن القتال وأجزل الجائزة لمن دل عليه قال ابن حبيب "فقال مروان بن الحكم من يدلنى على القتال من مملوك فهو حر ومن كان حر فله كذا وكذا "(١).

وظل مختبئاً عند حبيب بن جبار بن سلمى فأغرى الجعل المقدر رجلاً من بنى العجلان فدل عليه ، فلما أحس حبيب برجال الدولة أدخل القتال فى حجلة ابنته زينب وهناك لبس ثيابها وبرقعها ولطخ يديه بالحناء متنكراً حتى اختفى عنه طالبوه .

ولما وجد القتال أن طالبيه قد جدّوا فى البحث عنه لم يجد بداً من أن يهجر الحى وأن يلجأ إلى البرية والفيافى فدخل شعاب جبل يسمى عماية وكان هذا الجبل وعراً لا سبيل لرجال الدولة إليه، وفيه قضى القتال وقتاً بعيداً عن الأنظار لا يتصل بأحد من الناس إلا بأخ له يأتيه بما يحتاج إليه .

وعندما علم القتال أن الأمير مروان بن الحكم يرسل فى طلبه أدركه الحذر وزعم أنه غير ممعن فى العصيان ولكن خوفه من مروان هو الذى يمنعه من القدوم عليه :

١- المحّبر ٢٢٨.

أَيرْسِـــلُ مَـــرْوَانُ الأميـــرُ رِسَـــالَةً لأَتيـــــه إنـــــى إذن لمضـــــلَّلُ
ومـــا بـــى عصـــيانٌ ولا بُعـــدُ متـــرل ولكننـــى مـــن خـــوف مـــروان أوجـــلُ

وتذكر رواية منقولة عن ابن حبيب أن القتال أثناء مقامه فى جبل عماية ألف نمراً وكان النمر يصطاد الغزلان فيلقى بها أمام القتال فيأخذ منها ما يكفيه حتى إذا انتهى من الطعام ألقى بالباقى إلى النمر وكذلك كان القتال يخرج للصيد فيأتى بما اصطاده يحمله معه إلى الكهف الذى يأوى إليه ويأخذ بعض لطعامه ويلقى ما فضل عن حاجته إلى صديقه النمر ،بل إن النمر كان يقوم على حراسة القتال إذا ورد الماء ثم يتنحى القتال عنه حتى يرد النمر فيقوم القتال على حراسته حتى يشرب .

وقصة مصادقة القتال للنمر من الأخبار المألوفة التى تروى عن الشعراء اللصوص والمنبوذين أو التى يروونها هم عن أنفسهم من مصاحبتهم للوحوش ومصادقتهم للغيلان ونحن هنا لسنا بصدد قبول الرواية أو رفضها ذلك أن استئناس الوحش أمر معترف به فى عصرنا ولكن الذى نهتم له هو ما أنشأه القتال شعراً فى هذا المقام يقول القتال(١)

ولى صاحب فى الغار هدّك صاحبا هـــو الجـــون إلا أنـــه لا يعلـــلُ
إذا مـــا التقينـــا كـــان جُـــلَّ حـــديثنا صـــماتٌ وطـــرف كالمعابـــل أطحـــلُ
وكانـــت لنـــا قَلْـــتٌ بـــأرض مُضِـــلَّة شـــــريعَتُنا لأَيِّنَـــــا جـــــاء أولُ
كلانـــا عـــدو لـــو يـــرى فـــى عـــدوه مهـــزا وكـــل فـــى العـــدواة مُجْمِـــلُ
تضـــمنت الأورى لنـــا بطعامنـــا كلانـــا لـــه منهـــا ســـديف ومأكـــلُ
فَأَغْلِبُـــه فـــى صـــنعة الـــزاد إننـــى أُمِـــيطُ الأذى عنـــه ولا يَتَأَمَّـــلُ

١- الديوان ، ص٧٧ ، ٧٨

ويرى د. إحسان عباس أن هذه الرواية ما هى إلا أسطورة ويستنكر أن تكون منقولة عن ابن حبيب باعتراف أبى الفرج الأصفهانى وأن يرويها ابن حبيب مرة أخرى فى المحبر عن شخص يسمى قران بن يسار الفقعسى ، ويرى أن هذه القصة التى تحدث بها القتال ما هى إلا دليل على ما أصاب أعصابه من اضطراب وما داهم ذهنه من تفرق يقول:"وقد كفانا الجاحظ مناقشة هذه الأسطورة حين قال "إذا استوحش الإنسان تمثل له الشىء الصغير فى صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه (١) وبالإضافة إلى ذلك فإن الآمدى قد نسب قصة مثلها للحسن بن على الملقب بالقتال الباهلى الذى أحدث حدثاً فصعد جبل يذبل وأقام فيه فألقه النمر وكان يرد معه فى الشريعة (٢)

من هنا ندرك أن هذه القصة ما هى إلا "أنموذج" لأسطورة يصلح تطبيقه على كل متأبد من أولئك الفتاك المتمردين الذين كانت تنأى بهم جرائمهم عن دائرة المجتمع الإنسانى وتضعهم فى صحبة الوحوش الضارية وهو "أنموذج" جعله الجاحظ أثراً من آثار الاختراع والمغالاة الأسطورية عندما يستوحش الإنسان ويتفرق ذهنه وتضطرب أخلاطه ولم تذكر المصادر كيف اهتدى رجال الشرطة إلى القتال ولكن ابن حبيب يخبرنا أنه أخذ من أجل قتله زياداً وحُبس فى المدنية دون أن يذكر طريقة القبض عليه .

وقد كانت حياة السجن قاسية مريرة فحاول القتال التخلص منها ويبدو أن الفرصة سنحت له لينجو بنفسه عن طريق جريمة أخرى اقترفها لم تكن فى الحسبان هى قتله ابن هبار القرشى وقد تعددت الروايات التى تذكر حادثة قتل القتال لابن هبار وملخصها أن القتال عندما أودع السجن وكان لابن هبار عدو من أبناء عمه فعمل ابن العم هذا على مساعدة القتال فى الهرب من السجن نظير أن يعطيه سيفاً ليقتل به ابن هبار

١- الحيوان ٦: ٢٥٠
٢- المؤتلف والمختلف ١٦٧.

فلما استطاع قتل ابن هبار أمده مستأجره بفرس نجيب هيأ له أسباب النجاة وفى ذلك يقول:

تركتُ ابنَ هبار لدى الباب مسنداً وأصبح دونى شابةٌ فَأَرُومُها
بسيف امرىء لا أُخبرُ الناس باسمه ولو أجهشت نفسى إلىَّ همومَها

وهذه القصيدة التى قيلت تثبت أن قائلها قد سجن وأن السجان كان يعامله معاملة قاسية مما اضطره إلى قتله (١)

ولمّا رأيتُ الباب قد حيل دونه وخفتُ لحاقاً من كتاب مُؤَجَّلِ
حملت على المكروه نفساً شريسةً إذا وُطّنَتْ لم تَسْتَقِدْ للتذللِ
وكالىءُ باب السجن ليس بمنته وكان فرارى منه ليس بمؤتلى
إذا قلت رَفِّهْنى من السجن ساعة تَدَارَكْ بها نُعْمى علىّ وأَفْضَلِ
يشد وَثَاقِى عابساً ويتلَنى إلى حَلَقَاتٍ فى عمود مُرَمَّلِ
فقلت له والسيف يعصب رأسه أنا ابن أبى أسماء غيرَ التنحل
عرفتُ نِدَاى من نِدَاهُ وجرأتى وريحا عُدَواء كالُحوار المجدل

ويذكر الأصفهانى هذه القصة بالتفصيل فيقول"حبس القتال فى دم ابن عمه الذى قتله زماناً فى السجن ، ثم كان بين ابن هبار القرشى ابن عم له من قريش عداوة ،فبلغ ابن عمه أنه محبوس فى سجن المدينة فأتاه فقال له: أرأيت إن أنا أخرجتك أتقتل ابن عمى المعروف بابن هبار؟ قال :نعم قال:فإنى سأرسل إليك بحديدة فى طعامك ، فعالج بها قيدك حتى تفكه ثم البسه حتى لا تنكر فإذا خرجت إلى الوضوء فاهرب من الحرس فإنى جالس لك ومخلصك ومعطيك فرساً تنجو عليه ، وسيفاً تمتنع به،فإن خلصك ذلك وإلا فأبعدك الله ، فقال: قد رضيت .

١- الديوان ،ص٧٥

وكان أهل المدينة يخرجون من المحتبسين إذا أمسوا للوضوء ، ومعهم الحرس ففعل القتال ما أمره به وأتاه الفرس فخلصه وآواه حتى أمسك عنه الطلب ثم جاء به وأعطاه سيفاً، فقتل ابن عمه المعروف بابن هبار، ووهب له نجيباً فنجا عليه ويذكر ابن حبيب رواية قتل ابن هبار فيقول "خرج ابن هبار القرشى إلى الشام فى تجارة أو إلى بعض بنى أمية ،فاعترضه جماعة فيهم القتال الكلابى وغيره فقتلوه وأخذوا ماله، وشاع خبره فاتهم به جماعة من بنى كلاب وغيرهم من فتاك العرب، فأخذوا وحبسوا ، أخذهم عامل مروان بن الحكم فوجههم إليه وهو بالمدينة ،فحبسهم ليبحث عن الأمر ،ثم يقتل قتلة ابن هبار فلما خشى القتال أن يعلم أمره،ورأى أصحابه ليس فيهم غناء، اغتال السجان فقتله وخرج هو ومن كان معه من السجن فهربوا " (١)

دعا رجل من الحى يقال له أبو سفيان القتال الكلابى إلى وليمة فجلس القتال ينتظر رسوله ولا يأكل حتى انتصف النهار وكان عنده فلقة من حوار فقالت له امرأته هل لك فى فلقة من حوار نطبخها لك؟ فقال: لا واللّه نحن على وليمة أبى سفيان ودعوته وكان أبو سفيان رجلاً من الحى زفت إليه امرأته تلك الليلة فلما لم يأت أبو سفيان قال القتال لامرأته

وإن أبـــا ســـفيان لـــيس بِمُـــولِمٍ فقـــومى فهـــاتى فلْقَـــةً مـــن حُـــوَارِكِ

اقتتل بنو جعفر بن كلاب وبنو العجلان بن كعب بن ربيعة بن صعصعة فقتلت بنو جعفر بن كلاب رجلاً من بنى العجلان، وكانت جدة القتال أم أبيه عجلانية- وهى خولة بنت قيس بن زياد بن مالك بن عجلان – فاستبطأ القتال أخواله بنى العجلان فى

١- الأغانى ج٢٤ ،٢٧٨

الطلب بثأرهم من بنى جعفر وجعل يحضهم ويحرضهم على ذلك ولكن بلغه أنهم أخذوا من بنى جعفر دية المقتول فعيّرهم بما فعلوا وقال:

لعمرى لَحَيٌّ من عَقِيلٍ لقيتُهُمْ ... بِخَطْمَةَ أو لاقيتهم بالمناسك

عليهم من الحوَك اليمانى بزَّةً ... على أرحبيات طِوالِ الحوارك

أحبُّ إلى نفسى وأملحُ عندها ... من السروات آلِ قيس بن مالك

إذا ما لقيتم عصبة جعرفية ... كرهتم بنى الكعاء وقع السنابك

فلستم بأخوالى فلا تصلبَنَّنى ... ولكنما أمى لإحدى العواتك

قصارُ الغماد لا ترَى سَرَوَاتهم ... مع الوفد، جَثَّامُون عند المبارك

قُتِلْتُم فلما أن طَلَبْتُم عَقَلْتُمُ ... كذلك يؤتى بالذليل كذلك

فلما حرض القتال قومه على الطلب بثأرهم من الجعفريين: يا قومنا ، ما لنا فى قتالكم حاجة، وقاتل صاحبكم قد هرب وهذا أخوه جبأه فاقتلوه، فرضوا بذلك وأخذوا جبأة فلما صاروا بأسود العين قدمه جحوش فضرب عنقه بأخيه سعيد

وقد قال القتال فى تحريضهم قصيدة طويلة منها :

فيا لأبى بكر ويا لَجَحَوَّشٍ ... ولله مولى دعوةٍ لا يُجَابُهَا

أفى كل يوم لا تزال كتيبةٌ ... عُقَيْلِيَّةٌ يهفو عليكم عُقَابُها

وأنتم عديدٌ فى حديد وشفرةٍ ... وغابٍ رماح يكسِفُ الشمسَ غابُها

يُسْقَّى ابن بشر ثم يمسح بطنه ... وحولى رجال ما يسوغ شرابها

مرّ القتال بعلية بنت شيبة بن عامر بن ربيعة بن كعب بن عمرو بن عبد بن أبى بكر وأخويها :جهم وأويس فسألها زماماً فأبت أن تعطيه وكانت جدتهم أم أبيهم أمة يقال لها

أم حدير، وكانت لقريظة ابن حذيفة بن عمار بن ربيعة بن كعب بن عبد أبى بكر فولدت له أم هؤلاء واسمها نجيبة فولدت له عليه هذه فقال القتال يهجوهم: (١)

يا قَبَّحَ الله صبياناً تجيءُ بهم أُمُ الهنيبر من زَنْدٍ لها وارى

من كل أعلم منشق مشافِرُهُ ومُؤْدَنٍ ما وَفَى شبراً بمشبار

يا ويحَ شيماء لم تَنْبَذْ بأحرار مثلى إذا ما اعترانى بعضُ زوار

وكان القتال يسرف فى كرهه للإماء ولا يؤمن إلا بنقاء الدم وكانت لعمه سرية فقال له القتال: لا تطأها، فإنا قوم نبغض أن تلد فينا الإماء، فعصاه عمه ،فضربها القتال بسيفه فقتلها ، فادعى عمه أنه قتلها وفى بطنها جنين منه ،فمشى القتال إليها فأخرجها من قبرها، وذهب معه بقوم عدول وشق بطنها وأخرج رحمها حتى رأوه لا حمل فيه فكذبوا عمه فقال:

أنا الذى ضربتها بالمُنْصُل عند القُرَيْنِ السائِلِ المُفَضَّلِ

ضَرباً بكفى بطل لم يُثْكَلِ

وقال أيضاً:

أنا الذى انتشلتها انتشالا ثم دعوتُ غِلْمَةً أَزْوَالا

فَصَدَعُوا وكَذَّبُوا ما قالا

أراد القتال أن يتزوج بنت المحلق بن حنتم فتزوجها عبد الرحمن بن صاغر البكائى فلقى مولاة لها يقال لها : جَوْن فقال لها : ما فعلت؟قالت:تزوجها عبد الرحمن بن صاغر فقال"ما لها ولعبد الحمن؟ فقالت له: ذاك ابن فارس عَرَّاد.قال: فأنا ابن فارس ذى الرحل وأنا ابن فارس العرجاء ثم انصرف وأنشأ يقول:

يا بنتَ جَوْن أبانت بنتُ شداد؟ نعم لعمرى لِغَوْرٍ بعدَ إنجادِ

١- الأغانى ٢٤ ص١٨٢.

لِمَطْلَعِ الشمس ما هذا بِمُنْحَدَرٍ نحو الربيع ولا هذا بإصعادِ
قالت فوارس عراد، فقلت بها: وفيمَ أُمِّيَ من فرسان عَرَّادِ
فرسانُ ذى الرحل والعرجاء وابنتها فِدَى لهمْ رهطُ ردّادِ وشَدَّادِ

كان القتال متزوجاً من بنت ورقاء بن الهيثم بن هَفَّان .وكان جاراً لبنى حصين بن الحويرث بن كعب بن عبد وكانت لها ضرة عنده يقال لها أم رياح وهى أم جنوب بنت القتال . فخرج القتال فى سفر له. فلما رجع منه إلى أهله وجد عند بنت ورقاء جرير بن الحصين فلما رأى جرير القتال نهض فسأل القتال عنه فقالت له امرأته أم رياح- ويقال لها صفية- :"إن هذا البيت لبيت لا نزال نسمع فيه ما لا يعجبنا فطلق القتال بنت ورقاء وهى حامل فولدت له بعد طلاقها ابنه المسيب وقال القتال فى ذلك:

ولما أن رأيت بنى حصين بهم جَنَفٌ إلى الجارات باد
خَلَعْتُ عِذَارها وَلَهِيتُ عنها كما خُلِعَ العِذَارُ من الجَوَاد
وقلت لها: عليكِ بنى حصين فما بينى وبينك من عَواد
أناديها وما يوم كيوم قضى فيه امرؤ وطر الفؤاد
فَرُحْتُ كأننى سيف صقيل وعزت جارة ابن أبى قُراد

ثم إن كلاب بن ورقاء بن حذيفة بن عمار بن ربيعة بن كعب بن عبد بن أبى بكر نحر وصنع طعاماً وجمع القوم عليه وقال : كلوا أيها الفتيان ، فإن الطعام فيكم خير منه فى الشيوخ فقال القتال : أنا والله خير للفتيان منك أرى امرأة قد أعجبت أحدهم فأطلقها له ، وكان فى القوم جرير بن الحصين الذى كان وجده عند امرأته- فرفع جرير السوط فضرب به أنف القتال ثم أعطوا القتال حقه فلم يقبله حتى أدرك ابناه المسيب وعبد السلام وقيل حتى احتلم ولده الأربعة وهم: حبيب وعبد الرحمن وعبد الحى وعمير وطلب منهم أن ينتقموا له ويأخذوا له بثأره من جرير.

كان القتال يحب ابنة عمة العالية حتى بعد أن تزوجت ظل يذكرها فى أشعاره فاجتمع نفر من بنى بكر بن كلاب، وذهبوا للقتال وهو محبوس فشرطوا عليه ألا يذكر عالية فى شعره فضمن لهم ذلك فأخرجوه من السجن ثم راح القوم من السجن وراح القتال معهم، حتى إذا كان فى بعض الليل انحدر يسوق بهم ويقول (١)

قلتُ لـه يـا أخـرمَ بـن مـالِ ... إن كنـت لـم تُـزْرِ علـى الوصـالِ
ولـم تَجِـدْنى فـاحش الخِـلال ... فـارفع لنـا مـن قُلُـصٍ عجـالِ
مستوسِـقَاتٍ كالقطـا عِبَـال ... لعلنـا نطـرقُ أُمَّ عَـالِ
تخيـرى خُيِّـرْتِ فـى الرجـال ... بـين قصـير بَاعُـهُ تِنْبَـالِ
وأمـه راعيـةُ الجمـالِ ... تبيـت بـين القَـتِّ والجِعَـالِ
أذاكَ أم مُخَـرَّقُ السـربالِ ... كـريمُ عـمٍّ وكـريم خـالِ
متلـفُ مـال ومفيـدُ مـال ... ولا تـزالُ آخـرَ الليـالى
قَلُوصُه تَعْثُرُ فى النِّقَالِ

فلما سمعه القوم نزلوا وربطوه ، وآلوا ألا يحلوه حتى يوثق لهم بيمين ألا يذكرها أبداً ففعل فخلوه .

شعـره :

قام ابن السكيت بتصنيف ديوان القتال وكذلك وردت أشعاره فى أخبار اللصوص للسكرى وهو كتاب عرفه ياقوت معرفة وثيقة واستخرج منه كثيراً من الشواهد التى أدرجها فى أسماء الأماكن ، ويبدو أن صاحب منتهى الطلب قد رأى الكتاب أيضاً أو الديوان – ونقل منه أربع قصائد من طوال القصائد التى قالها القتال، وجمع

١- الديوان ، ص٨٣.

د. إحسان عباس سبعاً وأربعين بين مقطوعة وقصيدة بما فيهم القصائد التى وردت فى منتهى الطلب.

وينقسم شعر القتال من حيث الموضوع أو الغرض إلى نوعين: الأول هو أنواع الصراع الذى كانت تشهده البادية فى عصره والثانى هو الغزل الذى يشبه إلى حد كبير الغزل العذرى أما عن النوع الأول وهو ذلك الصراع الذى كانت تشهده البادية فى عصره فإن قصائد القتال كانت صورة واضحة للمنازعات القبلية وخاصة بين بنى جعفر وأبناء عمومتهم بنى أبى بكر ومن قصائده أيضاً ما هو صورة للصراع بين القتال وقبيلته بعد أن تخلت عنه لكثرة جرائمه حتى أنه تمنى فى بعض الأحيان لو أنه لم يكن منتسباً إليها

يا ليتنى والمنى ليست بنافعة لمالك أو لحصن أو لسيار

طوالُ أنضية الأعناق لم يجدوا ريح الإماء إذا راحت بأزفار

وأحياناً أخرى نجده يصيح فى وجه قبيلته بعد أن يئس منها لنبذها له وتراخيها عن حمايته والدفاع عنه :

هل من معاشر غيركم أدعوهم فلقد سئمت دعاء يا لكلاب

كذلك يصور شعره الصراع بين الدم الدخيل فقد كثر حديثه عن كراهيته للإماء وبغضه لهن، وكثر اعتزازه بأنه من نسل الحرائر:

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى إذا ترامى بنو الإموان بالعار

لا أرضع الدهر إلا ثدى واضحة لواضح الخد يحمى حوزة الجار

ويفخر بنفسه فى أكثر من موضع فيقول :

تعلو النَّجاد بمضرحى لم يذق لَبَأَ الإماءِ غداةَ غَبِّ المَوْلِدِ

ويقول :

أمـا الإمـاء فمـا يـدعوننى ولـداً إذا تُحُـدِّثَ عـن نقضـى وإمـرارى

فهو يؤمن إيماناً أعمى بنزوع العرق :

إن العـروق إذا اسـتترعتَها نزعـت والعـرق يسـرى إذا مـا عَـرَّسَ السـارى

والمثل الأعلى فى الشخصية لديه هو الصعلوك ونحن نرى بعض الأبيات فى شعره والتى تدل على ذلك فنحسبها وكأنها صدرت عن عروة بن الورد أو الشنفرى أو تأبط شراً من صعاليك الجاهلية (١)

جليـدٌ كـريمٌ خِيمُـه وطِبَاعُـهُ على خير ما تُبْنَى عليه الضَّرَائِبُ

إذا جـاع لـم يفـرح بأكلـة سـاعة ولـم يبتئس من فقدها وَهْوَ سَاغِبُ

يـرى أن بعـد العسـر يسـراً ولا يـرى إذا كـانُ يسْـرٌ أنـه الـدهرَ لازِبُ

أما عن غزل القتال فنجد أن شعره زاخر بأسماء كثيرات من النساء مثل شميلة وأميمة وخرقاء وطيبة أو ظبية وقطاة وليلى وعالية ومامة وجنوب وغيرهن ، ولم يكن شعره فى الغزل مفحشاً كأفعاله إنما كان رقيقاً يصور فيه وجده تصويراً يشبه العذريين حتى أن بعض أبياته اختطلت بأشعار بعضهم

وقد كان الحب فى شعره تعبيراً صادقاً عن حياة القلق والتشرد التى عاشها وحنينه إلى الاستقرار فى المكان أو الموطن الذى يحبه ولذلك كثرت أسماء الأماكن فى شعره وهى منـازل بنـى قومـه العـامريين ، وكـثيراً مـا كـان يشعر بحاجـة عميقـة إلى أن يكـون إنسـاناً طبيعياً يجد القلوب التى تحبه وترغبه (٢)

سَمعْتُ وأصـحابى بـذى النخـل نـازلا وقـد يَشْـعَفُ الـنفسَ الشَّـعَاعَ حبيبُهـا

١- الديوان ، ص٢٩
٢- الديوان ،ص٣٠

دعـاء بـذى البـردين مـن أم طـارق فيـا عمـرو هـل تبـدو لنـا فتجبيبهـا

وقد وصلتنا له قصيدة واحدة فى المدح وبين ما بلغه معاصروه مثل جرير والراعى والفرزدق والأخطل ذلك أن القتال لم يكن مهيأ للمدح كغيره من الشعراء لابتعاده عن المجتمع والحياة العامة نظراً لظروفه .

ويتميز شعر القتال بالبساطة والتعبير المباشر والقوة والنسق البدوى الجميل فهو يعد نموذجاً من شعر اللصوص يتعارض فى تصويره بين الثورة والاندفاع والتمرد الضعف الذى يربطه بالمكان الذى يحبه وخير مثال على ذلك ما قاله القتال ، ذو النفس الشريسة عندما اندفع من السجن فاراً فرأى الظعائن عن بعد :

بَكَيْـتُ بخلصـى شـنةً شَـدَّ فوقهـا علـى عَجَـلٍ مُسْـتَخْلِفٌ لـم تَبَلَّـلِ

جَدِيـدٌ كُلاهَـا مُـنْهَجٌ حَجَرَاتُهـا فللمـاءِ سـح مـن طبـابٍ مُشَلْشَـلِ

وهذا يعنى أنه بكى دموعاً تشبه فى غزارتها ما ترشح به قربة بليت حجراتها ولم يشدها المسئول عنها شداً محكماً ولبعض أشعار القتال قيمة الشاهد والمثل فمن الشواهد استعماله "حوث" بدلاً من "حيث" و"مفيد" بمعنى مستفيد وجمعه "أمة" على "إموان" بدلاً من إماء ومما يجرى مجرى المثل قوله "وهل يخفى على الناس النهار" و "إن العروق إذا استترعتها نزعت" لكن هذه المظاهر قليلة فيما بقى من شعره .